الملتقى الدولي:" التكامل المعرفي بين اللغة العربية وحقول المعرفة "

يومي 24-25 جوان 2024،

جامعة الشهيد سي الحواس بريكة. الجزائر

العنوان: "التراث اللغوي العربي واللسانيات الحديثة

(الاشتراك والتقابل) ابن خلدون/ تشومسكي أنموذجا"

الأستاذة : سعاد حميتي

الإطار: أستاذ محاضر أ

الجامعة : جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الاسلامية قسنطينة

الهاتف: 05 42 88 08 69

البريد الإلكتروني : hsouad75@hotmail.fr

المحور الثاني: التكامل المعرفي بين علوم اللغة العربية

الملخص :

اهتم العرب بدراسة علوم اللغة العربية اهتماما واضحا منذ بداية الحركة العلمية، فكانت جل جهودهم متعلقة بدراسة الأصوات و الصرف و التركيب؛ فصنفوا إلى مجموعتين كبيرين هما : مجموعة مهتمة بدراسة بنية اللغة و مجموعة أخرى مهتمة بدراسة مفردات اللغة و دلالتها، إضافة إلى دراسة مدى الترابط و التكامل بين هذه المجالات.

كان ابن خلدون ممن قرؤوا كل ما ألف حول اللغة العربية و آدابها، مدركا أن اللغة من مقومات العمران البشري، فتحدث عن تحصيلها و كل الأحوال الطارئة عليها، سواء أكانت خارجية أو داخلية فنظر ابن خلدون إلى اللغة و علومها نظرة عمرانية، و ربطها بالعمران في الرقي، إذ كلما ارتقى العمران ارتقت اللغة و علومها و كلما انحط و تقهقر تقهقرت اللغة .فما مدى ترابط علم البلاغة و علم العمران عند ابن خلدون؟ كيف أسهم علم العمران في رقي اللغة و تطورها؟ ما مدى تكاملية العلاقة بين علم العمران و علم البلاغة عند ابن خلدون ؟ كيف أسهمت علوم اللغة و البلاغة عند ابن خلدون في تأسيس علم العمران؟

الكلمات المفتاحية: تكامل، اللغة، علم البلاغة، العمران ، ارتقاء ، نظرية .

المداخلة :

علوم اللغة العربية مفاهيم و أراء

بنزول القران الكريم بلسان عربي أصبحت اللغة العربية اللغة الأكثر حظا و انتشارا، فاستطاعت مواكبة الحضارة دون تقهقر؛ فظلت هذه اللغة غير منقطة حتى القرن الأول الهجري ، و بدخول غير العرب في الاسلام و اختلاطهم بالعرب ظهر اللحن ، فخاف أهل العربية على لغتهم فكان الضبط و الشكل على يد أبو الأسود الدؤلي ت 68 ه الواضع لضوابط القران الكريم قائلا: " إذا رأيتني قد فتحت فمي بالحرف فأنقط نقطة فوقه على أعلاه، فإن ضممت فمي ، فأنقط نقطة بين يدي الحرف ، و إن كسرت فإجعل النقطة تحت الحرف ، فإن تبعت شيئا من ذلك غنة ، فإجعل مكان النقطة نفطتين ..."[1]؛ فوضع بذلك النقط و الشكل ، بوضع الفتحة فوق الحرف بلون للدلالة عليه ، و نقطة تحته للدلالة على الكسرة ، و نقطة من شماله للدلالة على الضمة و هكذا.

يأتي بعده الخليل ابن أحمد الفراهيدي ت 170 ه ، ليضع طريقة أخرى " فجعل من الفتحة ألف صغيرة مضجعة فوق الحرف و الكسرة ياء صغيرة تحته ، و للضمة واوا صغيرة فوقه، و كان يكرر الحرف الصغير في حالة التنوين ثم تطورت هذه الطريقة في هذه العصور...."[2].

فكانت اجتهادات كبيرة لأجل صون القران الكريم من اللحن ، فحظيت بذلك اللغة العربية بفضله، و برزت أعمال كثيرة لأجل دراستها و وضع القواعد و القوانين التي تعصم الألسن من الوقوع في اللحن و الخطأ، فظهرت أعمال الجاحظ ت 255 ه ، حول سسيولوجية اللغة أو اجتماعية الظاهرة اللغوية متحدثا عن وظيفتها الاجتماعية المتمثلة في تحقيق التواصل فتحدث عن البيان قائلا "البيان إسم جامع لكل شيء كشف لك قناع المعنى، و هتك الحجاب دون الضمير حتى يفضي السامع إلى حقيقة و يهجم على محصوله، و كائنا ما كان ذلك البيان و من أي جنس كان الدليل، لأن مدار الأمر و الغاية التي إليها يجري القائل و السامع، إنما هو الفهم و الافهام فبأي شيء بلغت الافهام و أوضحت عن المعنى

1- ابن الأنباري، نزهة الألباب في طبقات الشعراء، تحقيق ابراهيم السمرائي، مكتبة المنار، 1985 ، الأردن، ط 3، ص 20

2- ابن سعيد الداني ، المحكم في نقط المصحف ، تحقيق عزة حسن ، دار الفكر، 1997، دمشق سوريا ، ط2 ، ص 6،7.

فذلك هو البيان في ذلك الموضع...[1] "، فربط بذلك الجاحظ علم البيان بعملية التواصل التي تتم بواسطة اللغة التي يؤدي بدورها عملية الفهم و الافهام.

و يأتي بعد ذلك إبن جني ت 392هـ ، و الذي ذهب إلى اجتماعية اللغة، إذ يقول: " حد اللغة بأنها أصوات يعبر بها كل قوم عن أغراضهم ...[2]"، إذ نلمس من خلال هذا التعريف نقاطا أساسية أشار إليها ابن جني منها أن اللغة أصوات أي مشافهة، و أن اللغة إجتماعية أي ذات وظيفة اجتماعية تواصلية متمثلة في التعبير عن المقاصد، و المقصود بالمقاصد مقاصد الأفراد أو القوم أو المجتمع، و هذا ما يفسر لنا اجتماعية اللغة عند ابن جني.

لقد أدرك اللغويون العرب القدامى سسيولوجية اللغة منذ زمن بعيد، و نجد ذلك عند الجرجاني، و ابن جني ، و ابن هشام،... كما برز عندهم ما يعرف بمسألة مراعاة المقام أو سياق الحال؛ فالنص الأدبي يدرس وفق سياقه الخارجي . لقد عد مراعاة العامل الاجتماعي الركن الأساسي لدى البلاغيين خاصة صحة النص الخارجية ، فكان وجوب مطابقة الكلام لمقتضى الحال بمعنى لا يكون النص صحيحا إلا إذا وافق مقتضى الحال... كما أكد إن إبن جني من جهته على أهمية العامل الاجتماعي في استنباط الأحكام النحوية و في القياس العربي فربطوا القياس بالسياق الاجتماعي "إذ ورد عن بعضهم شيء يدفه كلام العرب و يأباه القياس على كلامها فإنه لا يقنع في قبوله أن تسمعه من الواحد و لا من العدة القليلة إلا أن يكثر من ينطق به منهم ...[3]" ، فكان استنباط القواعد من المتداول و المستعمل و المنطوق به من طرف العرب .

يأتي بعدها ابن خلدون ت 808 هـ المؤسس الحقيقي لما يعرف بعلم العمران و اللسانيات الاجتماعية، فكانت اللغة عنده ظاهرة اجتماعية و نجده يقر بذلك من خلال تعريفه للغة " اللغة عبارة المتكلم عن مقصوده و تلك العبارة فعل لساني ناشئة عن القصد لإفادة الكلام فلابد أن تصير ملكة مقررة في العضو الفاعل لها و هو لسان و هو في كل أمة بحسب اصطلاحاتهم ...[4]" فاستخدام كلمة أمة عند ابن خلدون يفسر اجتماعية اللغة أي أن كلمة أمة تعني مجتمع، فاللغة عنده من صنع الجماعة

1- الجاحظ ، البيان و التبيين، تحقيق و شرح عبد السلام محمد هارون، مكتبة الخانجي، القاهرة ، ج1، ص 76.

2- إبن جني ، الخصائص تحقيق محمد علي النجار، دار الكتب المصرية ، مصر، ج1، ص 31-32.

3- نفس المرجع، ج2، ص 25.

4- ابن خلدون، المقدمة ، تحقيق علي عبد الواحد وافي ، دار النهضة ، مصر، 2014، ط 07 ، ج3 ، ص 1127-1128.

اللغوية فهي متأثرة بالمجتمع" فعرف التخاطب في الأمصار و بين الحضر ليست بلغة مضر القديمة و لا بلغة أهل الجيل بل هي لغة أخرى قائمة بنفسها بعيدة عن لغة مضر و عن لغة هذا الجيل العربي و هي عن لغة المضر أبعد...[1]" فاللغة سلوك اجتماعي يتحقق من خلال التواصل و التفاهم بين أفراد المجتمع .

كان لعلوم اللسان النصيب الأوفر في دراسة ابن خلدون " حيث بنى اللسان العربي على أربعة أركان و رتبها مراتب متفاوتة و مختلفة حسب المقاصد التي يقصدها المتكلم و هي اللغة و النحو و البيان و الادب و معرفتها ضرورية على أهل الشريعة ...[2] ".

أول من حاول ترتيب المحتويات اللغوية في نمط متكامل هو أبو نصر الفارابي (260-339ه) في كتاب إحصاء العلوم بحيث " يطلق على كل العلوم اللغوية اسما شاملا لها هو علم اللسان و يتألف عنده من عدة مجالات يقابل علم الألفاظ المفردة في تصنيف الفارابي علم الدلالة في التصنيف الحديث ...[3]. ليقدم السكاكي ت 626 ه من جهته تصنيفا لعلوم اللغة في كتابه مفتاح العلوم إذ يقوم تصنيفه على أساس المقالات الخطأ إذ أن الخطأ اللغوي عنده " يمكن أن يكون في بنية الكلمة المفردة و هذا موضوع علم الصرف ، و قد يكون في تأليف مفردات داخل الجملة و هذا موضوع علم النحو و قد يكون في مطابقة العبارة للمعنى و هذا موضوع علمي المعاني و البيان و اعتبر السكاكي كل هذه العلوم المذكورة مجموعة علوم متكاملة ...[4]" اي أنه يقول بتكاملية العلاقة بين هذه العلوم .

علم البلاغة و أهميتها عند ابن خلدون:

تطرف ابن خلدون لعلم البيان بعد علم اللغة، إذ من المعلوم عنده أن علم البيان هو علم البلاغة (المعاني ، البيان، البديع) بعده ركنا ثالثا من علوم اللغة؛ ففصل كلامه على أبواب البلاغة و تميزها عن أبواب النحو و دورها في الكلام، ففرق بين مختلف التراكيب " فالواقعات المحتاجة للدلالة هي أحوال المتخاطبين أو الفاعلين و ما يقتضيه حال الفعل ، و هو محتاج إلى الدلالة عليه لأنه من تمام

1- نفس المرجع ، ص 1145.

2- ابن خلدون ، المقدمة ، دار الجيل ، بيروت ، ج2 ، ص 248 .

3- أبو العباس شمس الدين ، محمد بن أبي بكر ،وفيات الأعيان ، تحقيق إحسان عباس دار صادر، بيروت ، ج5، ص 153.

4- محمود فهمي حجازي ، علم اللغة العربية ، وكالة المطبوعات ، الكويت، 1973، ص 60-70-72.

الافادة إذا حصلت للمتكلم فقد بلغ غاية الافادة في كلامه ..."[1]، فعرف علم البلاغة بأنه العلم أو الفن " الذي يحصل به معرفة الشروط و الأحكام التي بها تطابق التراكيب اللفظية مقتضى الحال..."[2]، أي مطابقة الكلام لمقتضى الحال فتكون البلاغة عنده ما هو (حادث في الملة بعد علم العربية و اللغة ، و هو من العلوم اللسانية لأنه متعلق بالألفاظ و ما تفيده ، و يقصد بها الدلالة عليه من المعاني ..."[3]، فأشار بدوره إلى أقسام البلاغة الثلاثة مبينا أوجه انقسامها إلى الثلاثة أفرع المعروفة : المعاني، البيان، البديع؛ فالبحث البلاغي يكون في الدلالات و الأحوال و المقامات إذ يقول : " انما هيئات الأحوال الواقعات ، جعلت للدلالة عليها أحوال و هيئات هذه الألفاظ، كل بحسب ما يقتضي مقامه، فاشتمل هذا العلم المسمى بالبيان ، يقصد به علوم البلاغة على البحث عن هذه الدلالة التي للهيئات و الأحوال و المقامات و جعله ثلاثة أصناف : الصنف الأول يبحث فيه عن هذه الهيئات و الأحوال التي تطابق بها اللفظ جميع مقتضيات الحال و يسمى علم البلاغة... و الصنف الثاني يبحث فيه عن الدلالة على اللازم اللفظي و ملزومه ، و هي الاستعارة و الكناية و يسمى علم البيان ، و ألحقوا بهما صنفا آخر و هو النظر في تزيين الكلام و تحسينه أو ترصيع بقطع أوزانه و أمثال ذلك و يسمى عندهم علم البديع، و أطلق على الأصناف الثلاثة عند المحدثين اسم البيان ..."[4]، فتكون البلاغة عنده هي كل تعبير يحصل بهيئات الالفاظ و الأحوال، و ذلك حسب ما تفتضيه المقامات، و قد أشار ابن خلدون إلى فكرة تسمية علوم البلاغة باسم علم البيان، لأن هذا الأخير هو أول ما تكلمت به العرب أو بالأحرى واضعوا البلاغة .

تطرق ابن خلدون بالتفصيل لعلم المعاني و علم البيان و علم البديع، فأثار مسألة التكامل بين علم النحو و علم المعاني ؛ فعلم النحو يهتم بتصور المفردات و بتفسير الحركات و أبنية الكلمات ليقوم علم المعاني بالمقابل بالاهتمام بالواقعات المحتاجة للدلالة على أحوال المتخاطبين و ما يقتضيه حال الفعل، كما أشار إلى مسألة لكل مقام مقال يختص به بعد كمال اعرابه وبيانه " لكل كلمة مع صاحبتها مقام، ولكل حد ينتهي إليه الكلام مقام وإرتفاع شأن الكلام في باب الحسن والقبول وإنحطاطه في ذلك بحسب مصادفة الكلام لما يليق به، وهو الذي نسميه مقتضى الحال[5]"، فتحدث ابن خلدون عن الخبر

1- ابن خلدون ، المقدمة، ج2، ص 255.

2- نفس المرجع، ص 255.

3- نفس المرجع، ج1، ص 554.

4- عبد المتعال الصعيدي، بغية الايضاح لتلخيص المفتاح في علوم البلاغة، مكتبة الاداب ، 2005، ط 17 ، ج 1 ، ص 28-29.

5- عبد القاهر الجرجاني، دلائل الإعجاز، تحقيق محمود محمد شاكر، مطبعة المدني، القاهرة 1992، ط 3، ص107

والإنشاء وأحوال المسند والمسند إليه، الفصل والوصل، والإيجاز والإطناب، كما تطرق من جهته إلى تحديد أبواب علم البيان بعد التعريف به قائلا: " ثم قد يدل باللفظ ولا يراد منطوقه، ويراد لازمه إن كان مفردا كما تقول: زيد أسد فلا تريد حقيقة الأسد المنطوقة وإنما تريد شجاعته اللازمة وتسندها إلى زيد وتسمى هذه إستعارة، وقد تريد باللفظ المركب الدلالة على ملزومه كما نقول: زيد كثير الرماد، وتريد ما لزم ذلك عته من الجود وقرى الضيف لأن كثرة الرماد ناشئة عنهما، فهي دالة عليهم...فهي هيئات وأحوال الواقعات، جعلت للدلالة عليها أحوال وهيئات في الألفاظ كل بحسب ما يقتضي مقامه[1] "، مشيرا بعد ذلك إلى مسائل علم البديل وما يكون فيه من تزيين وترصيع إذ يقول: "وألحقو بهما صنفا آخر، وهو النظر في تزيين الكلام وتحسينه بنوع من التنسيق، إما بسجع يفصله، أو تجنيس يشابه بين ألفاظه، أو ترصيع بقطع أوزانه، أو تورية عن المعنى المقصود بإبهام معنى أخفى منه لإشتراك اللفظ بينهما وأمثال ذلك وسمي عندهم علم البديل[2] "، فقد تطرق إبن خلدون لمسائل علم البلاغة تطرقا إيجابيا موافقا فيه لما صدر عن بعض البلاغيين خاصة فيما يتعلق بالمسائل التي يدرسها علم المعاني (أحوال المتخاطبين)، ومطابقة الكلام لمقتضى الحال، وعلم البيان يبحث في الدلالة على اللازم النطقي وملفوظه، والبديع مهتم بتزيين الكلام وترصيعه وتنسيقه، كما تطرق ابن خلدون من جهته إلى نشأت علم البلاغة عن كل من المشارق والمغاربة قائلا في كتابه العبر" أن البدايات الأولى التي شهدها أهل المشرق لتطوير علم البلاغة كانت عندما كتب جعفر إبن يحي كتابه نقد الشعر وكان فد تحدث فيه عن علم البلاغة ثم تلاه الجاحظ وهو الملقب بزعيم البيان العربي[3]"، إذ وجدت ملاحظات حول علم البلاغة، ثم بدأت في التطور شيء فشيء حتى وصلت للسكاكي، والذي عد ثالث مؤسسي علم البلاغة بعد عبد القاهر الجرجاني والزمخشري "إذ قام بتهذيب المسائل المتعلقة فيه، مع قيامه لترتيب أبوابه، لدرجة جعلت منه كتاب لا ينقصه شيء، فلا يحتاج إلى زيادات بعده، فما كان لمن أتى بعده من علماء إلا أن يدور كلامهم حول ما كتب و صنف السكاكي[4] "، إذ أخذت منه جملة من الشروحات ككتاب الطراز ليحيى العلوي ، و كتاب الايضاح و التلخيص للقزويني ، أما المغاربة كانت عنايتهم مختصة بعلم البديع و الذي أدخلوه في الأدب الشعري إذ يرى ابن خلدون أن المغاربة " ابتعدوا عن صنوف البلاغة الأخرى ،

1- السكاكي، مفتاح العلوم، فدمه وضبطه وكتب هوامشه نعيم زرزور، دار الكتب العلمية، بيروت، 1987، ط2 ، ص423

2- إبن خلدون، المقدمة، ج1 ،ص552

3- حسين الدراوش، علي أبو راس، علوم البلاغة العربية في مقدمة إبن خلدون دراسة تحليلية، جامعة النجاح الوطنية، فلسطين، ص11-12-14

4- نفس المرجع، نفس الصفحة.

لما فيه من دقة و غموض و لم يكتف ابن خلدون بذلك فذكر أمثلة يعلل فيها سبب توجه المغاربة إلى علم البديع دون علمي المعاني و البيان[1]".

أما عن ثمرة علم البلاغة عند ابن خلدون فتكمن في " فهم الاعجاز القرآني، لأن اعجازه في وفاء الدلالة فيما يختص بالألفاظ في انتقائها و جودة رصفها و تركيبها ، و هذا هو الاعجاز الذي تقصر الأفهام عن ادراكه ، و إنما بدرك بعض الشيء منه من كان له ذوق بمخالطة اللسان العربي و حصول ملكته فيدرك من اعجازه على قدر ذوقه...[2]"، فألف البلاغيون مؤلفاتهم البلاغية لتكون وسيلة لفهم الاعجاز القرآني، كدلائل الاعجاز لعبد القاهر الجرجاني و نهاية الايجاز في دراية الاعجاز للفخر الرازي و الطراز المتضمن لأسرار البلاغة و علوم حقائق الاعجاز للعلوي؛ فكانت أهمية علم البلاغة عند ابن خلدون كغيره من العلماء و هي فهم الاعجاز القرآني" إذ عني علماء الاعجاز بهذا الوجه – البلاغة- أكثر من غيره و اهتموا به فدونوا في مؤلفاتهم كثيرا من الأساليب و الملحوظات و الأفكار البلاغية، حيث أصبحت معظم الكتب المؤلفة في الاعجاز القرآني مصادر بلاغية كرسالة الخطابي في (إعجاز القرآن)، و (النكت في إعجاز القرآن)للرماني ، و (إعجاز ا القرآن) للباقلاني، و (البرهان الكاشف عن اعجاز القرآن)للزملكاني 651 هـ[3]"، فمعرفة الاعجاز القرآني تكون بدراسة هذه العلوم البلاغية ، و هو ما أشار إليه ابن خلدون من امكانية معرفة الاعجاز عن طريق دراسة علوم البلاغة و كتب اللغة حتى يتشكل للدارس الذوق الفني و الحسي البلاغي .

الملكة البلاغية عند ابن خلدون:

قبل الاشارة إلى تحديد الملكة البلاغية عند ابن خلدون و طرق اكتسابها و الفائدة منها سنعرج غلى تحديد تعريفها لغة و اصطلاحا، فقد عرفها ابن منظور بقوله : " طال مِلْكُهُ و مُلْكُهُ و مَلْكُه و مَلَكَتُهُ عن الليحاني أي رِقُهُ و يقال: إنه حسن المِلْكَةِ و المِلْكِ عنه أيضا و أقر بالمَلَكَةِ و المُلُوكَةِ أي المِلْكُ و في الحديث لا يدخل الجنة سيء المَلَكَةِ، متحرك أي : الذي سيء صحبة المماليك، و يقال فلان حسن المَلَكَةِ إذا كان حسن الصنع إلى مماليكه و في الحديث حسن المَلَكَةِ هو نماء من ذلك [4]"، فالملكة من الناحية

1- نفس المرجع، ص 14.

2- ابن خلدون ، المقدمة، دار الأرقم، ص 630.

3- ابن خلدون ، المقدمة ، ص 635.

4- ابن منظور ، لسان العرب ، دار صبح بيروت ، المجلد 14، 2006، ط1، مادة م ل ك ، ص 177.

اللغوية و اللسانية هي الحسن كما أن الملكة هي " استعداد عقلي خاص لتناول أعمال معينة بحذق و مهارة [1]" .

أما من الناحية الاصطلاحية فقد عرفت عدة تعريفات قبل ابن خلدون فيعرفها أبو حيان التوحيدي قائلا: " الملكة العادة ، إذ يقول : إنها تكون عن طريق التكرار أي التعلم ، قيل أنها العادة قال: حال يأخذ بها المرئ نفسه من غير أن تكون مسنونة ، يجري عليها مجرى ما هو مألوف طبيعيا ،كما قال أبو سليمان المنطقي كأن هذا الاسم ليس يخلص إلا لمن أتى شيئا مرارا ، فأما في أول ذلك فليس له هذا النعت، إنما يصير مألوفا بالتكرار[2]".

أما ابن خلدون فقد عرفها قائلا : " الملكة صفة راسخة في النفس تتم نتيجة استعمال الفعل و تكراره مرات عديدة ، إذ يقول في هذا الصدد : و الملكة صفة راسخة تحصل من استعمال ذلك الفعل و تكرره مرة بعد أخرى و حتى ترسخ صورته و على نسبة الاصل تكون الملكة[3] "، أي تحصل الملكة يتكرا الفعل حتى تترسخ في النفس " فالملكات لا تحصل إلا بتكرار الافعال لأن الفعل يقع أولا و تعود منه للذات صفة ثم تتكرر فتكون حالا و معنى الحال أنها صفة غير راسخة ثم يزيد التكرار فتكون ملكة أي صفة راسخة[4]"، فالتكرار يؤدي إلى الحفظ الذي يزيد صاحب الملكة رسوخا .

اما الملكة البلاغية فحصولها يعبر عنه ابن خلدون من خلال مفهوم الذوق إذ يقول: " اعلم أن لفظة الذوق يتداولها المعتنون بفنون البيان و معناها حصول ملكة البلاغة للسان.....[5]" ؛ فالذوق يسعى لإدراك الطعوم و وجدانية اللسان.

فمن فوائد هذه الملكة عند ابن خلدون بعد اكتسابها أنها:" تهدي البليغ إلى وجود النظم وحسن تركيب المواقف لتراكيب العرب في لغتهم ونظم كلامهم فيستطيع بذلك تمييز السمين من الغث من الكلام

1- ابراهيم مصطفى ، أحمد حسن الزيات ، حامد عبد القادر ، محمد النجار، المعجم الوسيط ، دار الدعوة ، تحقيق مجمع اللغة العربية ، ط4، مادة ملكة، ص 190.

2- أبو حيان التوحيدي، الامتاع و المؤانسة ، دار مكتبة الحياة، ج3 ، ص 132.

3- ابن خلدون المقدمة ، دار الفكر ، بيروت 2004 ، ص 505.

4- نفس المرجع ، ص 506.

5- نفس المرجع ، ص 508.

فكأنه يذوق الكلام ويميزه كما يميز اللسان أنواع الأطعمة" [1]، فبحصول الملكة البلاغية نميز بين ما هو جيد ورديء أو حسن وقبيح إذ يقول ابن خلدون في موضع حصول الذوق البلاغي: "وإذا عرض عليه الكلام حائدا عن أسلوب العرب وبلاغتهم في نظم كلامهم أعرض عنه ومجه وعلم أنه ليس من كلام العرب الذين مارس كلامهم"[2] ، فتحصيل الملكة يكون من خلال البيئة والمحاكات والتكرار وهذا ما يدفع بابن خلدون بربط علم البلاغة بعلم العمران، فتبحره في علوم اللغة والبلاغة هو الذي أدى به إلى التفكير في وضع علم جديد سماه علم العمران.

علم العمران عند ابن خلدون (النشأة والأقسام)

كان لاحتكاك ابن خلدون المباشر بالقبائل البدوية الأثر الواضح في تقلده للعديد من المناصب السياسية المتنوعة خاصة في المغرب الأوسط وهذا ما أكسبه مادة ثرية حول المجتمعات وتغير أحوالها، وهذا ما حمله على البحث في نشأة الدول ومراحل تطورها ليتوصل إلى ما اصطلح عليه بعلم العمران البشري، إذ يختص علم العمران عند ابن خلدون بموضوع الاجتماع الإنساني، وهذا ما نجده في مقدمته، فالإنسان كائن اجتماعي بطبعه ولا يمكنه العيش بمعزل عن الجماعة والتعاون بين أفراد القبيلة أو الجماعة البشرية، فالعمران عنده: "الساكن والنازل في مصر أو حلت تأنس بالعشير، واقتضاء الحاجات لما في طباعهم من التعاون على المعاش..."[3]، فالإنسان محتاج لغيره لإشباع حاجاته، وهذه حقيقة اجتماعية أشار إليها ابن خلدون مضيفا إليها حقيقة أخرى وهي تعاون وصراع الجماعة البشرية لأجل البقاء، فالتعاون والصراع هما: "معنى العمران عند ابن خلدون..."[4]، فالإنسان يحتاج للتعاون والصراع لأجل الحفاظ على بقاءه مع ضرورة وجود الوازع وهو الحكم أو السلطة أو القيادة لأجل الاستقرار مع الحاجة الملحة إلى البيئة الجغرافية.

إن مفهوم العمران الذي اختاره ابن خلدون كان مصدره القرآن، وكلمة عمران عنده خاضعة لحقيقتين، حقيقة إلهية وأخرى استخلافية أي إستخلاف محله الأرض إذ يقول في تفسيره للحقيقتين:

1- نفس المرجع، ص 513.

2- نفس المرجع، نفس الصفحة.

3- ابن خلدون، المقدمة، تقديم نواف الجراح، دار صادر بيروت، 2009، ط 02، ص 37 – 38.

4- نفس المرجع، ص 39.

"فانحصر الماء عن بعض جوانبها لما أراد الله تكوين الحيوانات فيها، وعمرانها بالنوع البشري الذي له الخلافة على سائرها..."[1]

لقد كانت فكرة الارتقاء أساس وضع ابن خلدون لعلم العمران إذ يقول شارحا هذه النظرية: "إن الذوات التي في آخر كل أفق من العوالم مستعدة لأن تنقلب إلى الذوات التي تجاورها من الأسفل والأعلى استعدادا طبيعيا كما في العناصر الجسمانية البسيطة وكما في النخل والكرم من آخر أفق النبات مع الحلزون والصدف من أفق الحيوان وكما في القردة التي استجمع فيها الكيس والإدراك مع الإنسان صاحب الفكر والروية..."[2]، ليستدرج بعد ذلك قائلا: "ثم لا يزال التدريج في المخالفة (التطور) حتى ينتهي إلى المباينة بالجملة"[3]، أي محاولة منه للمباينة بين التدرج في العمران والتدرج في الجملة.

النظرية الارتقائية عند ابن خلدون

إن العلوم اللسانية بصفة عامة "جاءت تتويجا لما نبع من القرآن الكريم حتى ارتقى إلى فكرة البيان مع الجاحظ، ليكتمل في فكرة العمران عند ابن خلدون..."[4]، فإذا ما أردنا أن نحلل فكرة الارتقاء الذي جاء بها ابن خلدون لأجل اكتشاف تكاملية العلاقة بين علم العمران وعلم البلاغة أو البيان، سنجد أن ابن خلدون قد أجاد في طرحها وشرحها فالعمران عنده امتدادا للبيان إذ أن نهاية الفكرة بداية العمل ونهاية العمل بداية الفكرة وهو قانون صارم إذ يقول: "بقانون الارتقاء"[5]، وهو ما بنى عليه ابن خلدون كل أفكاره وآراءه التي نجدها :"مستمدة من نظرية الجاحظ المستمدة في جميع تصوراتها من القرآن الكريم كما ذكرنا..."[6].

1- ابن خلدون، المقدمة، تح وافي، الجزء الأول، ص 340.

2- ابن خلدون، المقدمة، دار صادر، بيروت، ص 845.

3- نفس المرجع، ص 845.

4- محمد الصغير بن ناني، المدارس اللسانية في التراث العربي وفي الدراسات الحديثة، سلسلة أهل الحكمة، دار الحكمة، 2001، ص 51 -52.

5- ابن خلدون المقدمة، دار الكتاب اللبناني، بيروت، 1997، ص 839.

6- محمد الصغير بناني، المدارس اللسانية، ص 52.

إن النظرية الارتقائية أخذت من مفهوم: "قدمه لنا الأستاذ محمد طالبي إذ أخذنا عنه مفهوم الارتقاء عند ابن خلدون"[1]، وهو الذي تكرس في الثقافة الغربية على أن داروين هو الذي اكتشفه في منتصف القرن 19.

لقد بنى ابن خلدون نظريته الارتقائية على أطوار متراصفة متضامة، هذه الاطوار التي تفسر بالفطرة الزمنية إذ: "ينتقل فيها الكائن لسانيا كان أو إنسانيا أو حيوانيا من صورته الأولى إلى صورة أخرى كما أن لو كان حقيقة أخرى وليست تطورا داخليا..."[2]، وهو ما حصره لنا في انطلاق العمران من درجته الصفر (البدوي) ليصل إلى الدرجة الأخيرة -الخامسة- وهي درجة العمران العلمي.

يمثل الطور أو الفترة الزمنية عند ابن خلدون ما يقابل الحال عند البلاغيين إذ: "أخذوه عن المتصوفة ووظفها ابن خلدون لبناء نظرية التحصيل وهي تنص على أن المعنى ينشأ أول ما ينشأ عن الفعل فإذا ما تكرر الفعل صار صفة، وإذا تكررت الصفة صارت حالا..."[3].

لقد بنى ابن خلدون نظريته الارتقائية وفق نظام خماسي يكون من أسفل إلى أعلى ومن أعلى إلى أسفل نزولا، إذ مثلها: "في شكل شجرة أصلها ضيق وهو واسع وفرعها واسع وهو ضيق دقيق وهي المنوال الذي رصت فيه جميع المعاني التي تعمر الكون كلمات كانت أم أشخاصا وأشياء..."[4]، وبذلك يكون قد مثل هذا الارتقاء أو أجراه على العمران واللغة معا، وهو ما يشكل التكامل بينهما؛ فتشكل العمران يكون بتركيب الأفعال: "فالأعيان المتفرقة إذا جمعت ونظمت كانت أكوانا متراصفة في منوال عمراني واحد إذا ركبت في الأفعال كانت عمرانا فعليا وإذا ركبت في أفكار وألفاظ لسانية كانت عمرانا فكريا وكلاميا..."[5]، وهذا ما يبين لنا تكاملية العلاقة بين علمي البلاغة والعمران، وقد وضح لنا ذلك في شكل الشجرة أو الهرم الذي ترتب فيه الذوات: "فالذوات التي في آخر كل أفق من العوالم مستعدة لأن

1- نفس المرجع، ص 52.

2- ابن خلدون، المقدمة، ص 857.

3- محمد الصغير بناني، المدارس اللسانية، ص 53.

4- نفس المرجع، ص 53.

5- نفس المرجع، ص 53.

تنقلب إلى الذوات التي تجاورها من الأسفل والأعلى استعدادا طبيعيا كما في العناصر الجسمانية البسيطة"[1]، وهو ما نجده عند الجاحظ عندما عبر عن ذلك بقوله: "العالم الصغير سليل العالم الكبير"[2]، وهو ما بنى عليه الجاحظ في ما بعد نظرياته اللغوية.

إذا ما طبقنا السلم الارتقائي عند ابن خلدون على الكلام لكان على شكل مجموعة من الدلالات المحبوكة في شبكة نحوية تظهر قيمتها إذا ما أدرجت فوقها طبقة البلاغة إذ: "أن البلاغة التي هي مطابقة الكلام لمقتضى الحال ترتقي إلى طبقة الأسلوب التي تجمع العبارة البلاغية وتضيف إليها البديع أي إبداعات المتكلم لأن الأسلوب هو العلامات الدالة على شخص المتكلم أو الصانع للعمران..."[3]، وهو ما عبر عنه ابن خلدون كذلك في ارتقاء العمران من طور إلى طور أي من فترة زمنية إلى أخرى ينتقل فيها الكائن الحي من صورته الأولي إلى صورة أخرى، وكذلك الشيء في ارتقاء النبات والحيوان كما يقول: "وكما في النخل والكرم من آخر أفق النبات مع الحلزون والصدف من أفق الحيوان وكما في القردة التي استجمع فيها الكيس والإدراك مع الإنسان صاحب الفكر والروية"[4]، وهذا ما يبين لنا تكامل العلاقة بين علم العمران وعلم البلاغة، ولذلك فكر ابن خلدون في الجمع بينهما "فكيفية صنع التراكيب الكلامية ككيفية صنع التراكيب العمرانية تخضع للذكاء والحذق ولذلك فكر ابن خلدون في الجمع بين التراكيب العمرانية والتراكيب اللسانية في علم واحد للتراكيب سماه فقه التراكيب..."[5]، هذا الأخير الذي من شأنه يمكن من الوصول والارتقاء للإعجاز القرآني: "فالتراكيب المعنوية تبدأ عند العناصر العليا المؤلفة لنظم القرآن الذي لا تدركه إلا خواص النفوس"[6]، فمنوال ابن خلدون يقوم على الجمع بين التراكيب اللسانية والتراكيب الميدانية في العلاقات بين الأشخاص في الواقع المعيش وفق مقامات معينة، إذ أرقى ما توصل إليه ابن خلدون من خلال فقه التراكيب هو الأسلوب إذ يقول: "ولنذكر هنا مدلول لفظة الأسلوب عند أهل هذه الصناعة وما يريدون بها في إطلاقهم، فاعلم أنها عبارة عندهم عن المنوال الذي تنسج فيه التراكيب أو القالب الذي يفرغ فيه... فهذه الصورة ينتزعها الذهن من أعيان التراكيب وأشخاصها ويصيرها في الخيال كالقالب أو المنوال ثم ينتقي التراكيب الصحيحة عند العرب باعتبار الاعراب والبيان

1- ابن خلدون، المقدمة، ص 845.

2- الجاحظ، الحيوان، دار الكتاب العربي، بيروت، 1969، ط 03، ص 33.

3- محمد الصغير بناني، المدارس اللسانية، ص 54.

4- ابن خلدون، المقدمة، ص 845.

5- نفس المرجع، ص 1083.

6- نفس المرجع، ص 925.

فيرصها فيها رصا كما يفعل البناء في القالب أو النساج في المنوال حتى يتسع القالب بحصول التراكيب الوافية بمقصود الكلام"[1].

وإليك الهيكل الارتقائي تلخيصا لما جاء في المقدمة عن البلاغة والعمران[2]

الشعر	العلمي
الأسلوب	الصناعي
البلاغة	الحضري
النحو	السياسي
متن اللغة	البدوي
البلاغة	العمران

وهذا ما يفسر لنا الارتقاء في البلاغة والارتقاء في العمران ومدى التكامل الحاصل بينهما، فارتقاء العمران يبدأ من الصفر أي البدوي ليصل إلى الدرجة الخامسة وهي العمران العلمي وكذلك الشأن بالنسبة لارتقاء البلاغة فتبدأ من النحو لتصل إلى درجة الشعر.

خاتمة

1- نفس المرجع، ص 1099.

2- محمد الصغير بناني، المدارس اللسانية، ص 56 – 57.

أوجد ابن خلدون نظريات من قوانين العمران والعصبية، وقان بتقديم ملاحظات قيمة ودقيقة عن قيام الدول وعوامل استمرارها وسقوطها، كما توصل إلى ما يسمى بدعائم العمران البشري والمتمثل في البشر ومزاجهم وبيئتهم واقتصادهم وتعاونهم وصراعهم في ما بينهم، وعملية التخاطب بينهم كذلك التي لا تتم بالكلمات فحسب، بل بالتراكيب فالبناء العمراني لا يتم بالعصبية ولكن بالسياسة والعصبية التي تسود المجتمع البدوي أولا لتتقلص فيما بعد شيئا فشيئا بفعل التقدم والتطور إلى أن تصل إلى المجتمع العلمي، والشأن كذلك للتطور البياني أو البلاغي الذي يكون على مستوى المفردات ليتحقق فيما بعد على مستوى المعاني.

إن توسع ابن خلدون وتبحره في علوم اللغة بصفة عامة والبلاغة في معناها الواسع هو ما أدى به إلى ما أسماه بعلم العمران، وهو ما يوضح علاقة نظرية العمران بالبلاغة العربية عنده، إذ تمثل البلاغة مطابقة الكلام لمقتضى الحال، ويمثل العمران من جهته العلم بكيفية التراكيب لمطابقة هذا الكلام لمقتضى الحال، وهو ما سمح بهذه النقلة من علم البيان إلى علم العمران؛ فعلم العمران هو العلم بكيفيات حصول التراكيب أو التمازج الاجتماعي لأجل معرفة مقتضى الحال أي حال الوقائع التي أدت إلى ظهورها على ذلك الوجه والواقع.